بين الحقيقة والخيال

المزارعون العارفون بالصناعات كلها!!

من مقال للكاتب الانجليزى المشهور

ويلفرد روبرتسن

> عاش المستر ويلفرد روبرتسن الكاتب الانجليزى الشهير حوالى العشرين عاماً فى اقليم الوماجندى من روديسيا ، واشتغل هناك كزارع يعنى بالاذرة والتبغ والقطن ، كما اشتغل بالقنص وصيد الوحوش الافريقية . وفى سنة ١٩٢٩ م عاد الى انجلترا غانماً رابحاً من تجارته مبلغاً كبيراً . وبدأ الاشتغال بصناعة أخرى هى الكتابة الصحفية .
>
> وفى هذا المقال الوصفى البديع يصور لنا الكاتب حياة المزارعين فى تلك الاقاليم النائية التى لا نعرف عنها شيئاً . وهو منقول عن مجلة من المجلات الانكليزية . « المحرر »

فى التقارير الرسمية للأوربيين النازلين فى روديسيا ، أن كل من يشتغل بتربية المواشى يسمونه مزارعاً ، ولو أنه ـ فى الحقيقة ـ عارف بكل شئ ، وليس بالزراعة فقط !

تراه يعيش فى فضاء من الأرض ، يمتد آلافاً من الأميال ، تتخللها أميال من صفوف الأشجار ، التى تتشعب بادئة من دائرة « المقر الأبيض » الذى يقطن فيـه رب الطبيعة ، ثم تنساب خلال الفضاء مكونة حدوداً طبيعية ناضرة ، تدق فى اتساقها عن كثير من الحدود الصناعية والأسوار .

فى هذا الفضاء المترامى يعيش المزارع فى هـذا الاقليم ، وقد أثقلته الطبيعة بجملة من المسئوليات ، لم تثقل به أى مزارع فى أى إقليم من الأقاليم الزراعية الأخرى التى وصل إليها التمدن ، فحتمت عليه أن يكون : طبيب أسنان ، وحداداً ، وضراباً ، ورجل بوليس ، وقاضياً يقضى ما بين الناس وبعضها من خصومات بالتى هى أحسن ، وقصاباً يذبح رقاب الحيوانات ـ المستأنس منها والمستوحش ـ ، وطبيباً وصيفياً وجراحاً !!! وبالاختصار فان الطبيعة حتمت عليه أن يكون عارفاً بشتى الحرف والصناعات والمهن .

ولو أمكن لأحد سكان المدن أن يعرف شتى هـذه الحرف والمهن والصناعات ، فلا شك أنه يجتنى منها أوفر الربح وأكثره ، على أن كلا من أولئك المزارعين فى روديسيا العارفين بشتى هذه المهن والصناعات يجتنى أيضاً أوفر الربح وأكثره ، لكنه ربح غير مادى ، بل هو

كسب روحي أو نفساني أكثر من أي شيء آخر ؛ ذلك لأن المزارع يجد في تنوع المهام ، واختلاف نوع العمل ، البهجة التي يجدها رجل الحضر في اتصاله بتعدد المحافل والمجامع ؛ مع أن في تنقله كل ليلة بين شتى المجالس متعبة له وعناء .

***

ويوم المزارع الروديسي النازح يبدأ بظهور خيوط الفجر في الأفق الشرقي ، وهواء الصباح يحمل إلى غرف البيت المختلفة من نوافذها شذى الغابة المحيطة ، ودخان نار المطبخ الملحق بالبيت من الناحية الخلفية ، وهو في يده دواره ؛ وهنا يدخل صبي المطبخ يحمل شاي الصباح - الذي لا غنى للأوربي عنه حتى في غير بلاده - ، فما أن يراه المزارع حتى يكشف عنه غطاءه الشبكي ليشرب السائل الساخن ، ويقفز من فراشه إلى حيث سرواله القصير وقميصه (السكاكي) فيرتديهما ؛ وهنا يكون ضوء النهار قد بدأ يسطع منتشراً في الوادي كله ؛ فيدق الصبي ناقوسه الذي لا يعدو حد صراخ بال يدق عليه بقطعة من الحديد الصدىء ، والحد معلق إلى حائط في الشرفة (الفيراندا) الخلفية . وليس الصوت الداوي الراعد الذي يصدر من هذا الناقوس البدائي إلا نداء للعمال الوطنيين الذين يشتغلون في المزرعة ؛ ليسرعوا ناظرين - من أنفسهم - صفوفاً تقف منتبهة في انتظار تعليمات اليوم ، ولكن ليس الصف إزاماً على كل المشتغلين في المزرعة ؛ فأولئكم الذين يقتنون على الماشية ، وأولئكم الذين لهم أعمال معروفة دائمة ، والحوذية والنقلة ، لا داعي لأن يصطفوا مع المصطفين ، بل عليهم أن يذهبوا مباشرة إلى أعمالهم . أما الشراذم التي تنتظر مقدم « السيد » ؛ فهي تشكيلة بديعة تشبه بحارة السفن التجارية ؛ وفي الفناء الأمامي يقف الرئيسان الوطنيان في بزة متناسقة أنيقة تستلزمها تقاليد الرئاسة ، ولا يعارض فيها أجرهما العالي بالنسبة للآخرين ؛ وقد تجمهرت خلفهما صفوف العمال في أبسط أردية الطبيعة ؛ أو في جلابيب قصيرة ، إذا رأيتها حسبتها شبكات مما يصطاد بها السمك ، أو في أردية لا تزيد على جوال ثقبت فيه عدة ثقوب للذراعين والرأس ، وفتح من أسفل ...

ثم يحضر « السيد » ويوجه الرئيسين الوطنيين ، وهذان بدورهما يوجهان الصفوف .

المزارع الطبيب

وفي بعض الأحيان يتضح من « تابور » الصباح أن أحد العمال متغيب ، وتثبت التحريات أنه مريض ؛ وهنا يكون على أحد الرئيسين أن يبحث عنه ويأتي به ليحضر أمام الطبيب ، ويخرج « السيد » ، فيخف العمال ورئيسهم سراعاً إلى أعمالهم المختلفة ومهماتهم المتعددة .

ويغيب الرئيس المكلف بإحضار الغائب المريض ، ثم يعود به ملفوفاً في ملاءة قذرة ، حيث يطرحه على الأرض أمام « السيد » أو الطبيب على حد سواء ، فينظر المريض إليه هزيلا مبؤساً فاقد الرجاء والأمل .

ويبدأ المزارع باستجوابه بلغته الوطنية على النحو الآتى :

المزارع — حسناً يا صاح ! ماذا أصابك ؟

المريض — إننى مريض جداً يا سيدى .

المزارع — آه ... فهمت ، ولكن أين تشكو ؟ الرأس ، أم الصدر ، أم الظهر ؟

المريض — (عند ما يسمع لفظة الصدر) نعم يا سيدى .

فيكون على الطبيب أن يقوم بالفحص ثم وصف الدواء .

ولكنه فى بادىء الأمر يفشل وتشكل الأمور عليه ، ولو أن كثرة التجربة والمزاولة تكون قد علمته كثيراً ، بحيث يستطيع — بعد عدة دقائق — أن يكون فكرة عامة عن نوع المرض، وفى الأغلب الأعم أن سواد المرضى لا تكون إصابتهم إلا بالملاريا، نظراً لانتشار البعوض فى تلك الأقاليم ؛ ومن ثم يسرع المزارع المتطبب إلى بيته ، باحثاً عن زجاجة (الكينين) ، ثم يعود بها حيث يعطى منها جزءاً للمريض مع الارشادات اللازمة ، كأن يقول له : « يجب أن تأخذ حبتين من (الموديه) — اسم الكينين باللغة الوطنية — الآن » .

وقليل من الوطنيين يعرفون كيف يتناولون الأدوية على الوجه الصحيح ، وخاصة (البرشام) ، فانك ترى المريض يحبو نحو كوبة الماء التى يكون أحد زملائه قادماً بها ، فيضع فيها حبتين من النعناع ، ثم يعطى أسنانه خمس (برشامات) من الكينين يجرشها جرشاً ، ويقول فى نفس لهجته المستضعفة إلى الرئيس الوطنى: «دواء السيد هو دواء جيد ... فقط هو شديد على الذوق » .

ولقد مكثت هناك عشرين عاماً طبيباً متطوعاً ، أعالج العمال الوطنيين الذين يشتغلون فى مزرعتى ، أو يعيشون فى القرى المجاورة ، أو من يجيئون إلىّ فى معسكرات الصيد وخيامه... كنت طبيباً متطوعاً أعالج كل مرض أو حادث يمكن أن يصاب به الرجل الافريقى ؛ وفى بعض الأحيان كنت أزاول مهنتى فى سأم وملل، وفى بعض الأحيان كنت أجد فيها لذة ومتعة وفرصة أخدم بها الانسانية فى طائفة من أبنائها ، ويحضرنى الآن عديد من النماذج التى كنت أصادفها — كطبيب — فى هذه الصحارى الخضراء ، أكتفى منها بذكر الثلاثة الآتية :

جاءت إلىّ فى عيادتى بمزرعتى ذات مرة امرأة من إحدى القرى القائمة إلى جوارى ؛ ومعها غلام يشارف العاشرة سناً ... وبحى ! أنهل أعطيها جزءاً من دواء الرجل الأبيض تستعمله لابنها الأسود ؟ وقدمت إلى هذا الطفل ، وقد دفعته إلى الأمام ، ثم كشفت لى عن ذراعه المتقيح كله . وحيث وقف الغلام تساقطت نقط صفراء بكثرة من ذراعه على الأرض التى ألهبتها حرارة الشمس ؛ فلم يسعنى بادىء ذى بدء — وقد أحزننى حال الغلام — إلا أن أسألها: لماذا تركته حتى ساء هكذا ، ثم فكرت فى أن تعرضه علىّ ؟ وماذا سبب له هذا الجرح

المتقيح ؛ فأجابتني بما يستفاد منه : أنه فى ليلة من ليالى الأسبوع الماضى انزلق من فراشه إلى حيث كانت النيران وسط الكوخ المتدفئة؛ فقلت لها حانقاً: ولماذا لم تأتى إلىَّ منذ حدوثها؟ وما كان أشد دهشتى عند ما سمعتها تقول لى فى مزيج من صراحة وضراعة: لنا أدويتنا الخاصة وعلاجاتنا، نستخدمها أولا، فإذا فشلت قدمنا إلى السيد الطبيب الطيب القلب؛ ووفق طبهم الخاص وعلاجهم فانها لم تعمل لفلامها أكثر من أن تضع كمية من الأوحال على ذراعه فى مكان الجرح المتقيح.

وهذا ما كنت ألاحظه دائماً ؛ فانهم ينتظرون على المريض حتى اللحظة الأخيرة ، ثم يجيئون فى طلب المساعدة والانقاذ؛ وعلى الرغم من تأكدهم أنى أصرف الدواء مجاناً مع كافة الارشادات والتعليمات اللازمة لأهل القرى المجاورة ، سواء أكانوا ممن يشتغلون بمزرعتى ، أم ممن لا تربطنى بهم صلة العمل ؛ وفى إهمالهم الشائن هذا ما يجعل العلاج أصعب خمسين مرة مما إذا كانوا جاءوا إلىّ مباشرة بعد الاصابة ، كما أن الدواء يكلفنى كثيراً ، نظراً لأنه يكون متعمداً بالبداهة .

وهكذا كانوا يجيئون إلى ، فأفعل من أجلهم ما أستطيع، وأبذل كل ما هو فى مقدرى ، وأصرخ فيهم عابساً أن يكرروا الحضور فى صباح اليوم التالى ، وهكذا حتى يتم لهم الشفاء .

ومثلا آخر : هو أن رجلين جاءا إلى من قرية واحدة من الجوار ؛ بأحدهما جرح حديث بجانب رأسه ، وقد ربطه بخرقة من قماش وطنى (هارذى) ربطاً ساذجاً، ولكنه نفع على كل حال ؛ أما الآخر ففى يده جرح من قدر مكسورة ؛ جاءا إلى معاً فى وقت واحد ، فوقفت فى حيرة ، ترى من أعوده أولا ؟ المنطق يحتم على البدء بذى الشج فى الرأس، ولكن نظام (العيادات) يقتضى أن يكون ترتيب الكشف بالتسلسل ، إلا من يطلب مقابلة خاصة مستعجلة ، والأخير قد فعل هذا، ولم يفعله المصاب الواقع فى الخطر، ولكنى فى النهاية عملت بما أوحى إلى المنطق ، فضمدت لذى الشج جرحه وانصرف ، ثم عرجت إلى جرح يده ، فإذا بالجرح - على خلاف ما يبدو - ضحل غير عميق ، وسألته عن سبب الاصابة ، فبعد كثير من الاعياء فهمت أنه كسر - عن غير قصد - قدر ماء لكبير فى قبيلة مما أهاج صاحبها ، ومما جعل صاحبنا يعتذر ويخرج من جيبه ما قيمته (شلناً) من العملة الوطنية، وقدمه إلى صاحب القدر على سبيل التعويض ، فرفض الأول وطلب (شلناً) آخر فوق الأول ، فأبدى صاحبنا عجزه ، فاغتاظ صاحب القدر وضربه فى ظاهر كفه بقطعة منها حادة ، فأصيب بهذا الجرح الواسع على ضحله ، والذى لم يعتده الوطنيون من قبل ، فأسرع إلى يطلب البرء والشفاء ؛ وهكذا باع الرجل ذراعه بشلن ، وهكذا المال هو المعبود الأوحد حتى بين الزنوج .

ومثلا آخر : ذلك أن رجلا جاء إلى وضرسه يؤلمه ويريد أن يخلعه ؛ ولكنه جاء إلى بعد أن سرق إحدى (الزراديات) الخاصة بالدراجات ، وأعطاها لأحد مواطنيه على أن يشد له ما ضرسه فتخرجه ؛ وحاول المواطن ذلك ولكنه لم يفلح ، وأصيبت اللثة بتقيح أتى على أثره إلى مسرعاً، لأن مرض الأسنان عند الوطنيين نادر الحدوث، والتقيح لم يعرفوه فى اللثة.

أما كيف يلعب المزارع الروديسى دوره كصياد وشرطى وبناء ومهندس وحداد ، فذلك ما سنحدثك عنه فى العدد القادم .